

إثبات إعجاز القرآن

بين علماء التراث والقرآن الكريم

إعداد الأستاذ الدكتور

إبراهيـم بن منصـور التركـي

الأستاذ في كلية اللغة العربية والدراسات الاجتماعية

جامعة القصيم، السعودية


بسم الله الرحمن الرحيم

إثبات إعجاز القرآن بين علماء التراث والقرآن الكريم

إبراهيم بن منصور التركي

البلاغة العربية، قسم اللغة العربية وآدابها، كلية اللغة العربية والدراسات الاجتماعية، جامعة القصيم، السعودية.

البريد الإلكتروني: immt321@yahoo.com

ملخص البحث:

أنزل الله تعالى هذا القرآن العظيم إلى نبيه محمد –ﷺ- ليكون آيته للناس إلى يوم القيامة، فبه تكون هدايتهم ودلالتهم إلى طريق الله القويم. وقد أخذ هذا الكتاب العزيز اهتماما كبيرا من علماء الإعجاز القرآني وباحثيه في التراث العربي والإسلامي للكشف عن وجوه إعجازه، حيث توالت كتبهم ومؤلفاتهم في ذلك منذ القرون الأولى وإلى اليوم. ويسعى هذا البحث في الـ صفحات القادمة إلى المقارنة بين إثبات إعجاز القرآن الكريم في كتب علماء التراث، ومقارنة ذلك بالطريقة التي استخدمها القرآن لإثبات إعجازه. حيث ذهب علماء الإعجاز إلى أن (القرآن معجزة) يشبه معجزات الأنبياء السابقين، فهو في نظرهم مثل عصا موسى وناقة صالح وغيرها من معجزات الأنبياء السابقين. وقد كشف البحث عن وجود خمسة فروق جوهرية بين القرآن وتلك المعجزات. ثم حاول البحث بعد ذلك عرض الطريقة القرآنية التي أثبت بها إعجاز القرآن، وخلص إلى أن القرآن يقرر أن (القرآن آية) تشبه آيات الله الكونية الكبرى كالشمس والقمر والشجر والخلق، ولذا كانت أهم نتائج البحث هي القول إن هذه الطريقة تعدّ أنسب في النظر إلى إعجاز القرآن، حيث يمكن بها الكشف عن إعجاز القرآن للناس مسلمهم وكافرهم في كل زمان ومكان.

وقد سار البحث وفق المنهج التاريخي، كما جرى تقسيم البحث إلى مبحثين رئيسين، المبحث الأول يقدّم عرضًا وتقويمًا لوصف علماء التراث القرآنَ بأنه (معجزة) تشبه معجزات

الأنبياء السـابقين، والمبحث الثاني يكشـف طريقة القرآن الكريم في وصـف القرآن بأنه (آية)، ورأى أن هذا الوصـف أكثر قدرة في الدلالة على إعجاز القرآن وكونه كلام الله. وقد سـبق هذين المحورين مدخل يسـير سـلّط الضـوء على بحث إعجاز القرآن في ضـوء سـياقه الحضـاري والتاريخي للنظر في أثر ذلك على ما قاله بعض علماء التراث حول رأيهم في الإعجاز القرآني.

الكلمات المفتاحية: إعجاز القرآن – علوم القرآن– الإعجاز البلاغي – التراث العربي – البلاغة العربية.

Proving the Inimitability of the Holy Qur'an in between the Scholars of the Heritage of the Holy Qur'an

By: Ibrahim Bin Mansour Al- Turki
Majored in Arabic Rhetoric
Department of Arabic Language and its Literature
College of Arabic Language and Social Studies
Qassim University
Kingdom of Saudi Arabia

Abstract

Almighty Allah Has revealed the Holy Qur'an to His Prophet Muhammad (Peace be upon him) to be His miracle for people to the day of judgment. In the Holy Qur'an, people would find guidance along the right path of Allah. The Holy Qur'an has received great interest from the scholars who concentrated their research on the inimitability of the Holy Qur'an. Likewise, researchers of the Islamic and Arabic heritage devoted their work to uncover the miraculous aspects of the Holy Qur'an. Their books and their output continued in that direction from the early centuries of the call for Allah up till now. Accordingly, this research compares proving the inimitability of the Holy Qur'an in various books written by heritage scholars. This comparison follows the same methodology applied by the Holy Qur'an to prove its inimitability. Inimitability scholars believed that the Holy Qur'an is itself a miracle like those of the previous prophets. The Holy Qur'an, for those scholars, is like Moses's staff, Saleh's camel, or other miracles of the previous prophets. The research has reached five basic differences in between the Holy Qur'an and those miracles. After that the research has displayed the Qur'anic methodology employed to prove its inimitability. In short, the Holy Qur'an has referred to itself as being as a miracle like the great cosmic ones such as the sun, the moon, trees, and the creation. Therefore, the most important finding of the research is the saying that this methodology is the most convenient to trace the inimitability of the Holy Qur'an as it would allow people; Muslims and non- Muslims to discover the inimitability of the Holy Qur'an in all place and time. The Research has applied the historical approach and it includes two main research investigations; the first introduces a display and evaluation of the description given by the scholars of the Qur'anic Heritage handling the Holy Qur'an as a miracle like those of the previous prophets. The second investigation uncovers the way the Holy Qur'an describes itself as a miracle and such description can imply its inimitability and its being as the word of Allah. The two investigations have been preceded by a succinct introduction shedding light upon the research of the inimitability of the

Holy Qur'an in the light of its civilizational and historical contexts to find out about its impact upon what some scholars of the heritage said with relevance to their views regarding the Qur'anic inimitability.

Key words: the inimitability of the Holy Qur'an, Qur'anic sciences, rhetorical inimitability, Arabic heritage, Arabic rhetoric.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المقدمـــة

أخذ القرآن الكريم اهتماما كبيرا من علماء الإعجاز القرآني وباحثيه في التراث العربي والإسلامي للكشف عن وجوه إعجازه، حيث توالت كتبهم ومؤلفاتهم في ذلك، وفي هذا السياق يذكر الإمام أبو يعقوب السكاكي اتفاق العلماء على إعجاز القرآن، واختلافهم في تحديد وجه الإعجاز، حيث ورد عنهم ((الاتفاق على أنه معجز واختلفوا في وجه الإعجاز، فمنهم من يقول وجه الإعجاز هو أنه عز سلطانه صرف المتحدين لمعارضة القرآن عن الإتيان بمثله ... ومنهم من يقول وجه إعجاز القرآن وروده على أسلوب مبتدأ مباين لأساليب كلامهم في خطبهم وأشعارهم، لا سيما في مطالع السور ومقاطع الآي ... ومنهم من يقول وجه إعجازه سلامته من التناقض ... ومنهم من يقول وجه الإعجاز الاشتمال على الغيوب ... فهذه أقوال أربعة يخمّسها ما يجده أصحاب الذوق من أن وجه الإعجاز هو أمر من جنس البلاغة والفصاحة))[١]. ومن الواضح أن الإمام السكاكي يميل إلى الرأي الخامس الذي يرى إعجاز القرآن في بلاغته، ولهذا نراه يؤكد أهمية علمي المعاني والبيان في تذوق إعجاز القرآن الكريم، فبهما وبدراستهما يمكن الوقوف على وجوه إعجاز البلاغة القرآنية، حيث يقول في ذلك ((واعلم أن شأن الإعجاز عجيب يدرك ولا يمكن وصفه، كاستقامة الوزن يدرك ولا يمكن وصفها وكالملاحة، ومدرك الإعجاز عندي هو الذوق ليس إلا، وطريق اكتساب الذوق طول خدمة هذين العلمين))[٢].

ويسعى هذا البحث في الصفحات القادمة إلى المقارنة بين إثبات إعجاز القرآن الكريم في كتب إعجاز القرآن عند علماء التراث، ومقارنة ذلك بالطريقة التي استخدمها القرآن لإثبات إعجازه. وسوف يكون الحديث عن هذه الفكرة في مبحثين رئيسين، المبحث الأول يقدّم عرضًا

(١) مفتاح العلوم، السكاكي، ص ٥١٢.

(٢) مفتاح العلوم، السكاكي، ص ٤١٦.

وتقويمـًا لوصف علماء التراث القرآنَ بأنه (معجزة) تشبه معجزات الأنبياء السابقين، والمبحث الثاني يكشــف كيف أن القرآن الكريم قد اســتخدم لفظ (آية) لكونه أكثر قدرة في الدلالة على إعجاز القرآن وكونه كلام الله. ويسـبق هذين المحورين مدخل يسـير يسـلّط الضـوء على دوافع بحث إعجاز القرآن في التراث العربي.

مدخل: دوافع البحث في إعجاز القرآن

جاء البحث في إعجاز القرآن كما يذكر جمهرة من العلماء ردّاً على الطاعنين في الإســلام والقرآن، وفي هذا يؤكد الباقلاني أن نشـأة البحث في إعجاز القرآن إنما جاءت للرد على الطاعنين في القرآن(١)، كما يؤكد كثير من الباحثين أن موضــوع معجزات الأنبياء وإثبات دلائل النبوة هو واحد من الموضــوعات التي انشــغل بها علم الكلام(٢) الذي يقوم على الاحتجاج للعقائد الإســلامية والدفاع عنها ونقد الشــبهات حولها(٣)، فهذا العلم يتناول الألوهية والنبوة والإمامة والمعاد(٤)، والمقصود بالنبوة هو معجزات الأنبياء.

ويؤكد هذا محمود شـاكر في رصـده التاريخي لقصة الإعجاز القرآني، حيث يشـير إلى أن هـذا البحـث قـد ظهر في منتـصف القرن الثاني بجهود بـاحثي علم الكلام، في حومة جدال مرّ وخصومة مسـتعرة. إذ بعدما ظهرت فئة ((من الزنادقة المشـاغبين المجادلين الطاعنين في النبوة وفي القرآن...احتـدم الجـدال والنظر والمحـاورة والخلاف والرد والـدفع بين هؤلاء المتكلمين

---

(١) ينظر: إعجاز القرآن، الباقلاني، ص ٢٤٦.

(٢) ينظر: جهود أهل الســنة والجماعة في الإعجاز اللغوي والبياني للقرآن، ابن القيم نموذجـًا، العيد حذّيق، ص٩٢. وخلاصة علم الكلام، عبد الهادي الفضلي، ص ١٣.

(٣) ينظر: خلاصة علم الكلام، ص ٢١.

(٤) ينظر: خلاصة علم الكلام، ص ٢٣.

أنفســـهم، وبينهم وبين المشـــاغبين الطاعنين في النبوة والقرآن، وبينهم جميعا وبين أهل الملل والنحل من اليهود والنصارى والبراهمة وغيرهم من الطوائف))(١).

ومثلما كان صنيع الطاعنين في القرآن سبباً في بحث إعجاز القرآن، فلعلّ وجود الشعوبيين الذين يقللون من قدر العرب وينتقصون من قيمتهم ولغتهم وثقافتهم آنذاك ســبب في اختيار الإعجاز البلاغي ليكون هو الوجه الأثير عند كثيرٍ من باحثي الإعجاز القرآني، حســبما يذكر الخطابي الذي يقول: ((وزعم آخرون أن إعجازه من جهة البلاغة، وهم الأكثرون من علماء أهل النظر))(٢). وليس ســرا أن عدو الشـعوبية ونصير العروبة الأول أبا عثمان الجاحظ يعدّ مِن أوائل مَن قال بالإعجاز البلاغي، حيث يؤكد أن ((دهر محمد –ﷺ- كان أغلب الأمور عليهم وأحســنها عندهم وأجلها في صـــدورهم حســـن البيان، ونظم ضـــروب الكلام، مع علمهم له، وانفرادهم به، فحين اســتحكمت لغتهم وشــاعت البلاغة فيهم، وكثر شــعراؤهم، وفاق الناس خطباؤهم، بعثه الله ﷻ فتحداهم بما كانوا لا يشكون أنهم يقدرون على أكثر منه))(٣).

هذا الربط بين القرآن وتفوق اللغة العربية يظهر أيضـــًا عند ابن قتيبة الذي يقدّم في كتابه (تأويل مشكل القرآن) الحديث عن فضل العرب واتساع لغتهم وتفوقها، مؤكداً في مقدمة كتابه أن سبب تأليف كتابه هو رغبته في ردّ الطعن الذي وجّه إلى لغة القرآن وأسلوبه، حيث يقول:

((وقد اعترض كتاب الله بالطعن ملحدون ولغوا فيه وهجروا، واتبعوا ما تَشــابَهَ مِنْهُ ابْتِغاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغاءَ تَأْوِيلِهِ بأفهام كليلة، وأبصار عليلة، ونظر مدخول، فحرّفوا الكلام عن مواضـــعه، وعدلوه عن سبله. ثم قضوا عليه بالتّناقض، والاستحالة، واللّحن، وفساد النّظم، والاختلاف....

(١) مداخل إعجاز القرآن، محمود شاكر ، ص٣٣، ٣٤.

(٢) بيان إعجاز القرآن، الخطابي، ص٢٤ (ضمن ثلاث رسائل) .

(٣) رسائل الجاحظ (الكلامية) ، ص ٣٣٥.

فأحببت أن أنضـــح عن كتاب الله، وأرمي من ورائه بالحجج النيّرة، والبراهين البيّنة، وأكشــف للناس ما يلبســون، فألّفتُ هذا الكتاب، جامعا لتأويل مشكل القرآن، مستنبطا ذلك من التفسير بزيادة في الشرح والإيضاح))[1].

إن كلام ابن قتيبة يدلّ على أمرين، الأول: وجود الطعن في القرآن آنذاك، والثاني: توجّه الطعن في زمن ابن قتيبة (بســبب الشــعوبية) إلى لغة القرآن ونظمه وأســلوبه، وهو مالم يكن موجوداً - كما يذكر - زمن نزول القرآن. ولهذا يؤلّف هو هذا الكتاب الذي يســعى إلى الرد فيه على ما أشكل من آي القرآن ولغته. وهذا يعني أنه بالإضافة إلى وجود توجّه يشكّك في الإسلام عبر الطعن بالقرآن، وُجِد أيضــًا توجّه يطعن في العرب ولغتهم عبر انتقاد لغة القرآن وأسلوبه. في ظل هذا الســياق الحضــاري جاء الردّ العربيّ على هاتين التهمتين قويّـًا، فالطعن في الإســلام والقرآن جُوبِه بالكشــف عن وجوه إعجاز القرآن، والرد على الشــعوبيين وأعداء العرب جُوبِه بجعل لغة القرآن وبلاغته هي وجه الإعجاز الأهم.

هذا الجهد الذي بذله علماء الإعجاز قد اعتمد في شــطر كبير منه على الاحتجاج لنبوات الأنبياء مســتخدما الاســتنباط والاســتنتاج العقلي، ويؤكد هذا كلام ابن خلدون الذي يشــير إلى المنهج العقلي الذي يستخدمه المتكلمون في الاستدلال والاحتجاج، حيث يقول في تعريفه علم الكلام بأنه ((علم يتضــمن الاحتجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية، والرد على المبتدعة المنحرفين في الاعتقادات عن مذاهب السلف وأهل السنة))[2].

وهو أمر يشــير إليه الرافعي أيضــًا الذي يقول عن كتابات بعض علماء الإعجاز في هذا الباب إنهم قد أبعدوا ((في المقايســة وأمعنوا في المذاكرة وأطالوا في الخ صومة، وفخموا ما

(١) تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبة، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت. ص ٢٣ .

(٢) مقدمة ابن خلدون ص٤٢٤.

شاءوا، ومضغوا من الكلام ما ملأ أفواههم، وجاءوا لعمري بما هو فلسفة ومنطق، بيد أنهم في كل ذلك توافوا على صنيع واحد من الرد بعضهم على بعض، فمن فلج بحجته فقطع خصمه عن المعارضة، وأفحمه دون المناضلة كان الرأي في الإعجاز ما رآه هو، وكان أكبر البرهان على صوابه عجز خصمه عن تخطئته))(١). إن البحث في إعجاز القرآن حسبما يرى الرافعي غارق في الخصومة والجدل والحجاج وإفحام الخصوم، وهو ما يعكس الجهد العقلي الكبير الذي انشغل به بعض باحثي الإعجاز.

وقول الرافعي السابق ظهر جلياً عند بعض كتّاب الإعجاز القرآني، حيث نجد أن كل عالم يؤلف أو يكتب في هذا المجال ينتقد الكتابات التي أُلّفت قبله، ويرى قصورها وعدم وفائها بالقصد الذي ألفت من أجله.

فالجاحظ وهو من علماء القرن الثالث ومن أوائل من كتب في إعجاز القرآن ينتقد سلفه النظام، حيث يقول الجاحظ: ((كتبت لك كتابا أجهدت فيه نفسي، بلغت منه أقصى ما يمكن مثلي في الاحتجاج للقرآن، وللرد على كل طعان، فلم أدع فيه مسألة لرافضي ولا لحديثي ولا لحشوي ولا لكافر مباد ولا لمنافق مقموع ولا لأصحاب النظام، ولمن نجم بعد النظام، ممن يزعم أن القرآن حق، وأن تأليفه ليس بحجة، وأنه تنزيل وليس ببرهان ولا دلالة))(٢). إن الجاحظ يرى قصورا فيما كتبه النظام وأصحاب النظام حول إعجاز القرآن، ويدّعي أن كتابه هو الذي سيعالج هذا النقص والقصور.

ويأتي الخطابي في القرن الرابع أيضا في كتابه (بيان إعجاز القرآن) لينتقد ما ذهب إليه مَنْ قبله، حيث يقول: ((قد أكثر الناس في هذا الباب قديما وحديثا، وذهبوا فيه كل مذهب من

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، الرافعي، ص ٩٩.

(٢) رسائل الجاحظ (الكلامية)، ص ٣٧٣.

القول، وما وجدناهم صدروا عن ري، وذلك لتعذّر معرفة وجه إعجاز القرآن، ومعرفة الأمر في الوقوف على كيفيته))(١). إن هذا النص كما يرى كاتبه يشير إلى تخبّط كثير من الناس في الحديث عن إعجاز القرآن، وتعذّر معرفتهم لوجه الإعجاز والوقوف على كيفيته.

ثم يأتي بعد ذلك الباقلاني في القرن الخامس وينتقد أيضا الكتابات التي سبقته في الحديث عن إعجاز القرآن، وخصوصا ما كتبه الجاحظ والمتكلمون، حيث يقول: ((وقد صنّف الجاحظ في نظم القرآن كتاباً لم يزد فيه على ما قاله المتكلمون قبله، ولم يكشف أكثر ما يلتبس في أكثر هذا المعنى))(٢). ومن الواضح أن الباقلاني ليس راضيا عما كُتِب قبله، لا ما كتبه الجاحظ، ولا ما كتبه المتكلمون قبله، ويحكم عليه بأنه لم يحقق الغاية المرجوة من وراء تأليفه.

وإذا انتقلنا إلى الباحثين المعاصرين نجدهم يؤكدون الفكرة ذاتها، ويبدون عدم رضاهم عن الكتب المؤلفة قبلهم، حيث يقول د.محمد أبو موسى: ((وليس بين يدي كتاب واحد من كتب البلاغة والإعجاز أصاب الهدف الذي رمى إليه صاحبه، وقدم ما يقنع ويقطع الطريق بتحقيق الغاية التي توخاها، ولهذا تواترت الكتب والجهود في هذين العلمين الشريفين، وترك كل كتاب من ورائه الباب مفتوحاً يدعو غيره))(٣).

وهذا الكلام السابق يشير إلى عدد من الأمور:

- أن البحث في إعجاز القرآن كان اجتهاداً بشريا قدّمه العلماء خلال معركتهم مع الطاعنين في النبوة والقرآن.
- أن باحثي إعجاز القرآن قد أصاب بعضهم وأخطأ بعضهم، وهو ما يفهم من النقولات السابقة في ردّ بعضهم على بعض، وهو أمر أكده شيخ الإسلام ابن تيمية الذي يرى أن بعض

(١) بيان إعجاز القرآن الخطابي ، (ضمن ثلاث رسائل) ، ص ٢٤ .

(٢) إعجاز القرآن، الباقلاني، ص ٦ .

(٣) الإعجاز البلاغي، د.محمد أبو موسى، ص ١٥٦ .

المتكلمين ((تكلموا في النبوات بكلام كثير لبســوا فيه الحق بالباطل، كما فعلوا مثل ذلك في غير النبوات، كالإلهيات وكالمعاد، وعند التحقيق لم يعرفوا النبوة، ولم يثبتوا ما يدل عليها، فليس عندهم هدى ولا بينات))[(١)].

- أن تخصيص بعض العلماء اللغة العربية وبلاغتها بالإعجاز قد جاء ردّة فعل على الشعوبيين الذي طعنوا في العرب ولغتهم.

وبناء على ما سبق فإنه يمكن القول إن مـ صطلحات (الإعجاز) و(المعجزة) و(التحدي) و(المعارضــة) هي ثمرة تلك الجهود التي بذلها أولئك العلماء في اجتهادهم العقلي والعلمي للرد على الطاعنين في القرآن، فهو اجتهاد بشــري محض، صــنعته عقول مجموعة من العلماء متأثرين بظروفهم التاريخية وسياقهم الحضاري آنذاك.

(١) النبوات، ابن تيمية، ص٦٤٣.

المبحث الأول

إعجاز القرآن عند علماء التراث

في هذه السطور سأعرض تعريف (المعجزة) عند باحثي الإعجاز القرآني، والنظر في مدى انطباق المعنى الاصطلاحي للمعجزة على القرآن الكريم، وهذا ما سيأتي شرحه من خلال العناوين الآتية:

تعريف (المعجزة) :

سأقف في البداية عند تعريف المعجزة لغة، حيث يذكر ابن منظور في لسان العرب أن ((العَجْز: الضعف، تقول: عَجَزْتُ عن كذا أعجز. والمُعْجِزَةُ، بفتح الجيم وكسرها، مفعلة من العَجْز: عدم القدرة. وأعجزه الشيءُ: عَجَزَ عنه))[1]. وجاء في القاموس المحيط (("أعجز فلانًا" أي: صيّره عاجزاً، ومُعْجِزَةُ النبيِّ، -ﷺ-: ما أعجز به الخَصمَ عندَ التَّحَدِّي، والهاءُ للمُبالَغَة))[2]. ومن الواضح أن المعنى اللغوي يدور حول معنى الضعف وعدم القدرة، وهذا المعنى اللغوي يتناسب مع مفهوم المعجزة التي يظهر فيها ضعف القوم وعدم قدرتهم على الإتيان بمثل معجزة النبي.

وإذا أردنا الانتقال إلى معنى المعجزة اصطلاحًا، ففي تعريفها يمكن أن يقال إن المعجزة هي "أمر خارق للعادة، مقرون بالتحدي، سالم من المعارضة، مقترن بدعوى النبوة"، وتدور تعريفاتها عند معظم العلماء حول هذا المعنى، حيث يعرفها الجرجاني في "التعريفات" بأنها أمر خارق للعادة، داعٍ إلى الخير والسعادة، مقرون بدعوى النبوة، قصد به إظهار صدق من ادعى أنه رسول من الله))[3].

---

(١) لسان العرب، ابن منظور، مادة (عجز).

(٢) القاموس المحيط، الفيروز آبادي، مادة (عجز). .

(٣) التعريفات، الجرجاني، ص ٢١٩، وينظر: دراسات في علوم القرآن، د.فهد الرومي، ص٢٥٧.

ويعرفها د.أبو زهرة بأنها ((الأمر الخارق للعادة الذي يدَّعي به من جرت على يديه أنه نبي من عند الله تعالى، ويتحداهم أن يأتوا بمثله إن كانوا صادقين))(١).

ويمكن استخلاص أهم سمات المعجزة(٢):

- أنها فعل خارق للعادة البشرية.
- أن يتحدى النبي بها قومه على الإتيان بمثلها.
- أن تقترن بدعوى النبوة.
- أن تكون سالمة من المعارضة فلا يستطيع أحد أن يأتي بمثلها.

وأضاف بعضهم سمة خامسة وهي أن تكون من جنس مابرع فيه القوم الذين أنزلت عليهم المعجزة، ومن الواضح أن هذه السمة مع السمات السابقة تنطبق على معجزة موسى عليه السلام عندما ألقى العصا فإذا هي تلقف ما ألقاه السحرة، فغلب قومه فيما برعوا فيه من السحر. وتنطبق أيضا على معجزة نبي الله عيسى الذي يحيي الموتى ويبرئ الأكمه والأبرص، فغلب بهذه المعجزة قومه الذين برعوا في الطب. وقد أشار إلى هذه السمة الخامسة الجاحظ (٣). وهناك انتقادات وجّهت إلى هذا التعريف والتوصيف العلمي للمعجزة ليس هذا مكان بحثها(٤).

---

(١) المعجزة الكبرى، محمد أبو زهرة، ص ٧.

(٢) ينظر: مباحث في إعجاز القرآن، د.مصطفى مسلم، ص ١٩.

(٣) ينظر: رسائل الجاحظ (الكلامية)، ص ٣٣٥.

(٤) غابت مثل هذه الانتقادات التي وجهها ابن تيمية لما كتبه باحثو إعجاز القرآن عن واحد من أهم ما كتب في هذا المجال عن ابن تيمية، وهو كتاب: (إعجاز القرآن عند ابن تيمية)، د.محمد العواجي. وقد لخص باحث آخر مآخذ ابن تيمية على تعريف الأشاعرة للمعجزة. (ينظر: موقف ابن تيمية من الأشاعرة، د.عبدالرحمن المحمود، ٣/ ٣٧٩. وقد ورد الحديث عنها عند تعريف المعجزة في بداية هذا الكتاب.

وقد سمى بعض العلماء هذه الآيات الدالة على نبوة النبي باسم (المعجزات)، رغم أن القرآن الكريم والسنة المطهرة لم يستخدما لفظ (المعجزة) و(الإعجاز)، وإنما استخدم القرآن لفظ (الآية)[1] كثيراً، و(البينة)[2] و(السلطان)[3] و(البرهان)[4] أحيانًا[5]، وقد أشار إلى هذا ابن تيمية، فالمعجزات ((لم يسمّها الله في كتابه إلا آيات وبراهين، فإن ذلك اسم يدل على مقصودها، ويختص بها، لا يقع على غيرها، لم يسمّها معجزة، ولا خرق عادة، وإن كان ذلك من بعض صفاتها))[6].

وأكد هذا أيضا محمود شاكر الذي يجزم أن لفظي "الإعجاز" و"المعجزة" ((لفظ محدث مولّد، وبيقين قاطع لا نجدهما في كتاب الله، ولا في حديث رسول الله -ﷺ، ولم أجدهما في كلام أحد من الصحابة، ولا في شيء من كلام التابعين ومن بعدهم، إلى أن انقضى القرن الأول من الهجرة، والقرن الثاني أيضًا))[7].

وبعد أن اتضح مفهوم (المعجزة) عند علماء الإعجاز، وانطباق هذا المفهوم على معجزات الأنبياء السابقين، مثل ناقة صالح وعصا موسى...الخ ستحاول السطور القادمة

---

(١) كما في قوله تعالى: {فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ قَالَ هَٰذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ} سورة الشعراء، ١٥٣-١٥٤.

(٢) كما في قوله تعالى: {قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ} سورة هود ٥٣.

(٣) كما في قوله تعالى: {وَفِي مُوسَىٰ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ} سورة الذاريات ٣٧.

(٤) كما في قوله تعالى: {فذانك برهانان من ربك الى فرعون وملائه إنهم كانوا قوما فاسقين} سورة القصص ٣١.

(٥) ينظر: مباحث في إعجاز القرآن، د.مصطفى مسلم، ص١٧.

(٦) النبوات ، ابن تيمية ، ص ٨٢٨، وينظر: الكتاب نفسه، ص٢١٥.

(٧) مداخل إعجاز القرآن ، محمود شاكر ، ص١٩ . وينظر: جهود أهل السنة والجماعة في الإعجاز اللغوي والبياني للقرآن، ابن القيم نموذجًا، العيد حذّيق، ص١٣.

الكشــف عن محاولة علماء الإعجاز تطبيق هذا المفهوم على القرآن الكريم، والنظر في مدى انطباق هذا المفهوم على القرآن الكريم.

قياس القرآن على معجزات الأنبياء السابقين.

بناء على ما ســبق يمكن القول إن بعض علماء الإعجاز البلاغي قد بذلوا جهدهم لتطبيق مفهوم (المعجزة) الذي ظهر في معجزات الأنبياء السابقين على القرآن الكريم، فقد ذهب علماء الإعجاز إلى أن القرآن معجزة تشبه معجزات الأنبياء السابقين، مثله مثل فلق البحر وقلب العصا حية وإحياء الموتى ونحوها، فالرماني على ســبيل المثال يذكر للقرآن وجوهـًا ســبعة أحدها هو (قياسه بكل معجزة)[١]. ويشـرح هذا بقوله: ((أما قياسه بكل معجزة فإنه يُظهر إعجازه من هذه الجهة، إذ كان سبيل فلق البحر وقلب العصا حية وما جرى هذا المجرى في ذلك سبيلا واحدا في الإعجاز، إذ خرج عن العادة وقعد الخلق فيه عن المعارضة))[٢].

إن الرماني يـ صرح بقياس القرآن على المعجزات الســابقة، ويشــبهه بمعجزتي موســى عليه السلام: فلق البحر وقلب العـ صا حية، وهذه الوجهة تظهر أيضــًا عند الباقلاني الذي يرى أن ((منزلة أهل الـ صنعة في معرفة إعجاز القرآن بأنفســهم منزلة من رأى اليد البيضــاء وفلق البحر))[٣]. ويؤكد هذا في موضــع آخر أن الناظر إذا تأمل ((جميع أســاليب الكلام، وأنواع الخطاب، ووجد القرآن مباينـًا لها علم خروجه عن العادة، وجرى مجرى ما يعلم أن إخراج اليد البيضــاء من الجيب خارج عن العادات، فهو لا يجوزه من نفســه، وكذلك لا يجوز وقوعه من غيره، إلا على وجه نقض العادة، بل يرى وقوعه موقع المعجزة))[٤].

(١) انظر: النكت في إعجاز القرآن، الرماني، ص٧٥.

(٢) النكت في إعجاز القرآن، الرماني، ص١١١.

(٣) إعجاز القرآن، الباقلاني، ص ٢٥٢.

(٤) إعجاز القرآن، الباقلاني، ص ٢٧.

ويظهر هذا القياس وهذه المشــابهة كذلك في حديث عبدالقاهر الجرجاني، وذلك عند تأكيده عجز الذين نزل عليهم القرآن عن مثله، حيث يقول: ((إذا كان هكذا، فقد انتفى الشك، وحصل اليقين الذي تسكن معه النفس، ويطمئن عنده القلب، أنه معجز ناقض للعادة، وأنه في معنى قلب العصا حية، وإحياء الموتى، في ظهور الحجة به على الخلق كافة))(١).

لقد أدى حمل القرآن الكريم على معجزات الأنبياء السابقين وقياسه عليها إلى سحب بعض سمات المعجزات السابقة وتطبيقها على القرآن، رغم أن هناك فروقًا مهمة بين القرآن ومعجزات السابقين، ومن أهم السمات التي توجد في معجزات السابقين وليست موجودة في القرآن:

١. خرق العادة: ويقصد بهذا أن المعجزة تتجلى دلالتها على النبوة من خلال خرق العادة، ومخالفة السنن التي اعتاد عليها الناس في حياتهم. وهذا النوع من الدلالة قد لا يكون ظاهراً في القرآن، فالقرآن هو (كلام الله)، والكلام ليس من الأمور الخارقة بل هو في مقدور البشر ومستطاعهم. ولذلك ذهب بعض باحثي الإعجاز إلى القول بالصرفة أو الإخبار بالغيب أو الإعجاز البلاغي لكي يكون في القرآن ذاك الأمر الخارق الذي كان موجوداً في معجزات السابقين.

٢. الظهور: ويقصد هنا أن وجه الإعجاز في معجزات الأنبياء السابقين يكون ظاهراً بارزاً، فالمعجزة يظهر جانبها الخارق بداهة دون حاجة إلى الكثير من التفكير والتفكّر والتأمّل، وهذا لا يظهر في الإعجاز القرآني.

٣. الظرفية: ويُقصد بهذا أن المعجزة عند السابقين تتجلى في ظرف محدد، حيث تقوم بإظهار جانبها الخارق في زمان ومكان محدّدين، ومن لم يكن حاضراً في ذلك المكان أو الزمان فلن

---

(١) الرسالة الشافية، عبد القاهر الجرجاني، ص ١٢٧. (ضمن ثلاث رسائل).

تتجلى له مشاهدة المعجزة وإدراك خرقها المعهود الإنساني. وهذا لا يظهر في إعجاز القرآن الكريم، فالقرآن يُفترض أن تتجلى آياته وبراهينه في كل آن وحين، في أي زمان أو مكان.

٤ . القصد: حيث يرى معظم باحثي الإعجاز القرآني أن المعجزة تأتي غالباً لقصد إثبات دعوى النبوة لغير المؤمنين، وينصون على هذا في تعريف المعجزة، وهذا القصد لا ينطبق تماماً على إنزال القرآن الكريم، ذلك أن القرآن ليس معجزة خارقة جاءت لإثبات دعوى النبوة لغير المؤمنين فقط، بل إنه كتاب مهم للمؤمنين أيضاً، فهو منهج يرسم سبل حياتهم وسلوكهم وأفعالهم التي تستقيم بها أمورهم في الدنيا ويسعدون بها في الآخرة.

إن هذه السمات التي تختلف فيها معجزات الأنبياء السابقين عن القرآن الكريم تؤكد الخصوصية التي يأتي فيها القرآن بوصفه آية نبوة نبينا محمد ﷺ، كما أنها تبدو مهمة في عدم إمكانية قياس القرآن على معجزات الأنبياء السابقين، ذلك أن دلالة القرآن على نبوة محمد ﷺ قد تبدو مختلفة عن دلالة تلك المعجزات على نبوة من نزلت إليهم من الأنبياء.

وهو ما يستشعره الباقلاني في ذهابه إلى أن إعجاز القرآن البلاغي قد لا يظهر للجميع، وأنه إنما يستظهره أهل الصنعة الأدبية، لكنه قد يشكل على من لم يكن من أهل الصنعة الأدبية، أو كان من العجم(١)، مؤكدا في موضع آخر بأن القرآن ((يفارق فلق البحر، وإخراج اليد البيضاء ونحو ذلك من وجه، في أنه يستوي الناس في معرفة عجزهم عنه، بكونه ناقضاً للعادة، من غير تأمل شديد، ولا نظر بعيد. فإن النظر في معرفة إعجاز القرآن يحتاج إلى تأمل))(٢).

وهذا التميز والاختلاف الذي أشار إليه الباقلاني بين القرآن والمعجزات الأخرى كان يحتاج والله تعالى أعلم إلى الانتباه والتفطّن له، لكن الذي حدث في التراث العربي هو أن وصف

(١) ينظر: إعجاز القرآن، الباقلاني، ص ٢٥٢.

(٢) إعجاز القرآن، الباقلاني، ص ٢٧.

القرآن الكريم بـــ (المعجزة) قد أدّى ببعض العلماء إلى محاولة تطبيق بعض سمات المعجزات عند الأنبياء الســـابقين على القرآن، وحمل القرآن عليها دون الانتباه إلى وجود هذه الفروقات بينهما

إن ما قلتُه أعلاه لا يعني بطبيعة الحال إنكاراً لإعجاز القرآن البلاغي، وإنما المقـصود أن إعجاز القرآن لم يكن طريقه طريق معجزات الســابقين، بحيث يأتي الأمر المحســوس الخارق الـصادم الذي لا يماري أو يشــك فيه أحد، وإنما جاء إثبات إعجاز القرآن (عبر اســتخدام لفظ "آية") لتدلّ بذلك على اختلاف دلالة القرآن على النبوة عن معجزات الأنبياء السابقين الخارقة. وهذا ما سأوضحه وأشرحه بإذن الله في المبحث القادم.

المبحث الثاني

وصف إعجاز القرآن في القرآن

إذا كان المبحث السابق قد كشف كيف أن استخدام لفظ (معجزة) أدّى إلى بعض الاجتهادات الخاطئة عند بعض باحثي الإعجاز في التراث، فإن هذا المبحث سيحاول بيان كيف أن اللفظ الذي استخدمه القرآن، وهو لفظ (آية)، يبدو أكثر قدرة في الدلالة على طبيعة الإعجاز القرآني؟ وهو ما ستحاول أن توضّحه السطور الآتية:

كيفية إثبات إعجاز القرآن:

إن من يتتبع آيات القرآن سيجد فيها ظاهرة بارزة عند الحديث عن القرآن، وهي أن ذكر كون القرآن آية ربانية يرد في مواضع متفرقة من القرآن وسط الكلام عن آيات الله الكونية كالخلق والشمس والقمر والسماء والأرض والليل والنهار.. الخ. وهو ما يدفع إلى القول إن في هذا إشارة إلى أن القرآن آية من آيات الله التي لا تختلف عن آياته الكونية المرصودة والمشهودة. فمثلما أن هذه الآيات الكونية تدلّ على صانعها القدير وخالقها العظيم، فكذلك هو القرآن الكريم يدلّ على مصدره ومبدعه العظيم.

ويمكن الوقوف على بعض المواضع لتوضيح الفكرة.

في سورة الرعد يقول تعالى:

﴿الٓمٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ١ ٱللَّهُ
ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ
مُّسَمّٗىۚ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمۡ تُوقِنُونَ ٢ وَهُوَ ٱلَّذِي مَدَّ ٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ فِيهَا
رَوَٰسِيَ وَأَنۡهَٰرٗاۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ
يَتَفَكَّرُونَ ٣ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ قِطَعٞ مُّتَجَٰوِرَٰتٞ وَجَنَّٰتٞ مِّنۡ أَعۡنَٰبٖ وَزَرۡعٞ وَنَخِيلٞ صِنۡوَانٞ وَغَيۡرُ صِنۡوَانٖ

يُسۡقَىٰ بِمَآءٖ وَٰحِدٖ وَنُفَضِّلُ بَعۡضَهَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلۡأُكُلِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴿٤﴾﴾ الرعد: ١ – ٤

إنه لمن الواضـــح في النص القرآني الســـابق كيف أن كلمة (آيات) قد جاءت في كل آية من الآيات الســـابقة، مع القرآن (آيات الله القولية) في الآية الأولى، ومع آيات الله الكونية في الآيات التاليات، كالسماء والأرض والشمس والقمر والليل والنهار:

ويرد مثل ذلك أيضا في سورة الجاثية عند قوله تعالى:

﴿ حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِي خَلۡقِكُمۡ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزۡقٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴿٥﴾ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۖ فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤۡمِنُونَ ﴿٦﴾ ﴾ الجاثية: ١ – ٦

ففي هذا النص القرآني يأتي لفظ (آيات) في الحديث عن آيات الله القولية (القرآن)، مقترنـًا مع آيات الله الكونية كالسماء والأرض والخلق والليل والنهار والنبات...الخ:

إن هذه الآيات تضـــع إنزال القرآن وســـط آيات الله الكونية ومخلوقاته العظيمة، حيث تؤكد أن هذه الآيات الكونية ومخلوقات الله العظيمة دالة على أنها من صنع الله ﷻ، فكذلك هي آيات الله القولية، وأعني بذلك القرآن، فهو دال كما يذكر القرآن الكريم على أنه من عنده ﷻ. ولذلك يُلحظ أنه في نهاية هذا الاقتران تأتي الإشـــارة بـــــ(تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق) لتشـــمل كل الآيات التي ســـبقت القولية والكونية، (من نزول القرآن وخلق الســـماء والأرض والناس والدواب... الخ). إن هذه هي الطريقة القرآنية التي يســـتخدمها القرآن لإثبات ربانية النص القرآني، حيث يظهر مثل هـذا الربط بين الآيـات الكونيـة والآيـات القوليـة (القرآن) في

مواضـع عدة، وهي ظاهرة لا تخطئها العين، حيث تأتي للتأكيد على كون القرآن آية من آيات الله العظيمة.

وقد ورد هذا الربط بين القرآن والآيات الكونية بشـكلٍ مطّرد في مواضـع مختلفة من السـور القرآنية، منها على سبيل المثال السور الآتية:

- الأنعام (٩٥ – ١٠٩)
- يونس (١ – ٦)
- الرعد (١–٤)
- فصّلت (٣٧ – ٤٢)
- الشورى (٢٥ – ٣٥)
- الجاثية (١ – ٦)

إن هذه الآيات الكونية الكبرى هي من خلق الله وهي أمر معجز، لا يستطيعها البشر ولا يقدرون عليها، وبشــيء من التأمل والتدبّر والتفكير ســيتضــح لكل ذي عقل ولب أنها مما لا يستطيعه الخلْق، وأنها مما تعجز عنه قدراتهم وإمكاناتهم. وإيراد القرآن الكريم ووصفه بأنه آية في هذا السياق يأتي ليؤكد الفكرة ذاتها، وهي أن القرآن لا يختلف عن تلك الآيات العظيمة، فهو معجز مثلها فلا يستطيع البشر مثله، إذ يمكن لكل ذي عقل أو لب أن يدرك أنه من العليم الخبير الله الذي أتقن كل شيء.

كيف يُدرَك إعجاز القرآن ؟

إن اقتران القرآن الذي يعد من آيات الله القولية مع آيات الله الكونية قد جاء ليؤكد اشتراكه معها في أمور، منها:

١. أنها جميعًا دالة على صانعها وعظيم صنعه.

٢. أن إعجازها غير مرتبط بزمان أو مكان محدد.

٣. أن إدراك إعجازها يأتي عبر التفكر والتدبر والتأمل.

إنه لمن الملحوظ ارتباط حديث القرآن عن تلك الآيات الكونية كالشمس والقمر والخلق بالتدبّر والتفكّر، فتلك هي وسيلة إدراك صنع الخالق وعظيم صنعه لها، حيث يقول تعالى: (وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ). وقوله: (أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ)، فالتأمل والتفكر والنظر في آيات الله الكونية يكشف حتمًا عن عظمة صانعها وبداعة صنعه.

ولأن دلالة القرآن على مـ صدره تشبه دلالة الآيات الكونية على خالقها فقد جاء أيضًا الأمر بتدبّر القرآن الكريم، والتفكّر في آياته لإدراك أنه من عند الله. ومن هنا فقد أكد القرآن الكريم في أكثر من موضع أهمية التدبر والتفكر لإدراك إعجاز القرآن وآياته الدالة على كونه وحيًا من عند الله، ولعل هذا هو أحد المقاصد المرادة من الأمر بتدبر القرآن وفهم ما فيه من الآيات والبراهين، حيث دعا القرآن في أكثر من آية إلى تدبره، كما في قوله تعالى:

{ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا}[النساء: ٨٢]

{ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الأَوَّلِينَ} [المؤمنون: ٦٨].

{كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الأَلْبَابِ} [ص: ٢٩].

{ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا} [محمد: ٢٤]

وعلى هذا يمكن القول إن القرآن الكريم قد تضمن عددا من الوجوه والبراهين والدلائل التي تثبت أنه كلام الله، وأن على الناس أن يتدبروا ويتمعنوا ويتفكروا في آياته ليروا فيها البرهان الصادق على كونه كلام الله ووحيا من عنده تعالى، وإلى هذا يشير قوله تعالى: {لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللهِ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ} [الحشر: ٢١]، وقوله: {كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الأَلْبَابِ} [ص: ٢٩]، فهذه الآيات تشير إلى أن القرآن كتاب أنزله الله إلى نبيه محمد عليه الصلاة والسلام ليتأمل الناس آياته ويتدبروها وليتفكر فيه ذوو العقول والألباب. قال في أضواء البيان: ((أما كون تدبر آياته، من حكم إنزاله: فقد أشار إليه في بعض الآيات، بالتحضيض على تدبره، وتوبيخ من لم يتدبره... أما كون تذكر أولي الألباب من حكم إنزاله، فقد ذكره في غير هذا الموضع، مقترنا ببعض الحكم الأخرى، التي لم تذكر في آية (ص) هذه كقوله تعالى في سورة إبراهيم {هَذَا بَلاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الأَلْبَابِ} [إبراهيم، ٥٢] فقد بين في هذه الآية الكريمة، أن تذكر أولي الألباب، من حكم إنزاله))(١).

ومن هنا فقد تضمن القرآن عددا من الآيات والبراهين والدلائل التي يمكن إدراكها بالتدبّر والتأمل، وهذا ما ذهب إليه بعض العلماء حيث يقول السيوطي: ((وأكثر معجزات بني إسرائيل كانت حسية ... لبلادتهم، وقلة بصيرتهم ... وأكثر معجزات هذه الأمة الإسلامية عقلية لفرط ذكائهم، وكمال إفهامهم ـــ ولأن الشريعة لما كانت باقية على صفحات الدهر إلى يوم القيامة، خصت بالمعجزة العقلية الباقية.. ليراها ذوو البصائر))(٢)، ولهذا ورد في مواضع متعددة من القرآن القول إن في القرآن آيات لأولي الألباب، ولقوم يعقلون، ولأولي النهى ... الخ. فمثلما

(١) أضواء البيان، الشنقيطي، ٧/ ٣٤٥.

(٢) الإتقان في علوم القرآن، السيوطي، ٢/ ١١٦.

أن من يتفكر في خلق السماء والأرض والشمس والقمر فسيدرك وجود أثر صانعها العظيم، فكذلك هي آيات القرآن، من يتأملها ويتدبرها فسيقف على ما يكشف عن الإتقان والإحكام الرباني، ويدرك بهذا التدبّر وجه إعجازه، وأنه من عند الله ﷻ.

ما وجه إعجاز القرآن؟

لقد قرر الباحثون في اللغات الإنسانية ارتباطها بحياة الإنسان وتفكيره وظروفه المعيشية. ومن هنا تتأثر اللغة بواقع الإنسان وظروف حياته، فتأتي انعكاسًا لطبيعة الإنسان النفسية أو الاجتماعية أو الثقافية. وبسبب هذا تختلف اللغة بين شخص وشخص أو مجتمع ومجتمع أو ثقافة وثقافة، وتقوم عدد من الدراسات المعاصرة على تحليل هذه اللغة للكشف عن قدرتها على تمثيل الإنسان.

لذلك ستبدو اللغة الإنسانية بكل تأكيد قاصرة عن الإحاطة بحقائق الأشياء مثلما تبدو عليه الأشياء فعليًا، لأن متكلم هذه اللغة سيعبّر عن إدراكه البشري القاصر لهذا الشيء أو ذاك متأثراً بظروف حياته. وهذا الأمر منتفٍ بخ صوص لغة القرآن الكريم، ذلك أن لغة القرآن تنزيل من حكيم حميد، ممَنْ يعلم السرّ وأخفى، ويعلم ماكان وما لم يكن. إن هذا يعني أن حديث القرآن عن القضايا والموضوعات والأفكار التي تضمّنها هو حديث الخبير البـ صير الذي يعبّر عن المعاني ويصف الأشياء بدقة متناهية لا تستطيعها اللغة البشرية القاصرة، فهو كما قال الله عنه: {لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تنزيلٌ منْ حكيمٍ حَميد}، فلا يأتيه الباطل من ناحية جميع الحقائق التي قالها الله عن الخلق وعن السماء والأرض والجبال والإنسان والطير والحيوان والكون.

إن القرآن لغة ربانية يـ صف بها الله الأشياء وفق علمه هو ومعرفته هو ﷻ، وستكون هذه اللغة بلا شك تمثيلا دقيقًا يعكس ذلك العلم والمعرفة الإلهية الدقيقة بالكون وموجوداته، فإذا

عبّر القرآن عن النفس أو المجتمع أو الطبيعة أو المخلوقات ... إلخ، فإنه يـ صفها من خلال المعرفة الإلهية التي تصوّر تلك الأشياء بدقة متناهية، فالله هو المتكلم هنا، وهو يعلم من خلق. ولهذا يبدو استكشاف ملامح العلم والمعرفة الإلهية في لغة القرآن عملاً جليلا إذا ابتعد عن التكلّف والتمحّل. إن لغة القرآن تعكس حقائق الأشياء بدقة، وبعض هذه الحقائق لا يعلمها ولا يعرفها البشر. ولهذا لا يُستغرب وجود بعض وجوه الإعجاز المتنوعة التي تكشف الأيامُ عنها تباعـًا في آيات القرآن الكريم. إنه مثلما أن كل خَلْق الله كالبشر والحيوان والشجر والبحر والجبل.. الخ هو من (صنع الله الذي أتقن كل شيء)، وهو يأتي كاشفـًا عن عظيم صنع الله وبديع إتقانه، فكذلك هو كلام الله، وكذلك هي لغة القرآن فلابد أن تكون كاشفة في وصفها الأشياء عن بديع إتقانه وعظيم علمه ﷻ.

وعلى هذا يمكن أن يقال إن الطريق الأمثل لمقاربة إعجاز القرآن هو الكشف عن الوجوه التي تكشف ربانية هذا النص القرآني العظيم. وثمة محاولات للحديث عن هذا الجانب الذي يربط التعبير القرآني بعلم الله المطلق، وبعده عن النقص والضعف الإنساني. من ذلك على سبيل المثال ما يتحدث به مالك بن نبي تحت عنوان (المجاز القرآني)، حيث يقف عند قوله تعالى {أو كظلمات في بحر لجي}، فيقول ((وهذا المجاز يترجم... عن صورة لا علاقة لها بالوسط الجغرافي للقرآن، بل لا علاقة لها بالمستوى العقلي، أو المعارف البحرية في العـ صر الجاهلي، وإنما هي في مجموعها منتزعة من بعض البلدان الشمالية التي يلفها الضباب في الدنيا... وفي الآية فضلا عن الوصف الخارجي الذي يعرض المجاز المذكور سطر خاص بل سطران، أولهما: الإشارة الشفافة إلى تراكب الأمواج. والثاني: هو الإشارة إلى الظلمات المتكاثفة في أعماق البحار، وهاتان العبارتان تستلزمان معرفة علمية بالظواهر الخاصة بقاع البحر، وهي معرفة لم تتح للبشرية إلا بعد معرفة جغرافية المحيطات ودراسة البصريات الطبيعية. وغني عن

البيان أن نقول: إن العصر القرآني كان يجهل كلية تراكب الأمواج، وظاهرة امتصاص الضوء واختفائه على عمق معين في الماء، وعلى ذلك فما كان لنا أن ننسب هذا المجاز إلى عبقرية صنعتها الصحراء، ولا إلى ذات إنسانية صاغتها بيئة قارية))[1].

وبناء على ما سبق يمكن القول إن وجه إعجاز القرآن هو: ((**دلالة القرآن على عظيم علم الله وقدرته الشاملة**))

من هنا يبدو القول إن القرآن (معجز) قولاً بدهيًا لا جدال حوله، فالقرآن من آيات الله القولية التي تدل على عظيم قدرته ﷻ، ودلالته لا تختلف عن دلالة سائر آيات الله الفعلية/ الكونية كالشمس والأرض والسماء والإنسان. الخ على عظيم قدرته ﷻ. ومهمة الإنسان تتمثّل في استكشاف عظيم قدرته تعالى في آياته القولية والكونية.

والقول إن القرآن آية تشبه آيات الله الكونية لا يعني أن إعجاز القرآن إنما يظهر من خلال آيات الله الكونية فقط، وإنما القصد هنا هو الإشارة إلى أن دلالة القرآن على منشئه تشبه دلالة الآيات الكونية على منشئها. إن قولنا في الأعلى بأن وجه إعجاز القرآن هو (دلالته على عظيم علم الله وقدرته الشاملة) يؤكّد تعدّد وجوه إعجاز القرآن الكريم وتنوّعها، فكل أمرٍ أو شأنٍ ورد في القرآن دلّ على علم الله الواسع، وقدرته سبحانه التي لا يستطيع مثلها البشر، فهي وجه من وجوه إعجاز القرآن الكريم. فقد يكون وجه إعجازه تاريخيًا، وقد يكون تشريعيًا، وقد يكون علميًا، وقد يكون بلاغيًا... إلخ. ولا شك بأن البلاغة هي وجه من أعظم وجوه إعجاز القرآن الكريم.

إن المشكلة -كما حاول هذا البحث أن يقول- قد جاءت في وصف بعض الباحثين في التراث القرآنَ بأنه (معجزة)، إذ إن هذا الوصف قد أدى إلى التباس بين القرآن ومعجزات الأنبياء

---

(١) الظاهرة القرآنية، مالك بن نبي، ص ٢٩٦.

الســـابقين عند بعض باحثي الإعجاز القرآني في التراث، حيث تم تطبيق بعض ســـمات تلك المعجزات على القرآن الكريم رغم اختلافه عنها، وأدى في الوقت نفســـه إلى التغافل عن بعض السمات التي يتفرد بها القرآن عن المعجزات الأخرى.

كما أن طريقة القرآن لإثبات إعجازه قد جاءت عبر ربطه بدلالة آيات الله الكونية على منشـئها، إذ إن كلاً من هذه الآيات الكونية آية من آيات الله التي تدل على عظيم صـــنعه وقدرته، فكذلك هو القرآن الكريم آية من آيات الله التي يمكن بتأملها وتدبرها إدراك دلالتها على أنها من عنده ﷻ. لقد اهتمّ القرآن بأن يكون (آيةً) خالدةً أكثر من أن يكون (معجزة) وقتية لافتة، مثلما هو حاصلٌ في آيات الله الكونية الباقية ما بقي الكون.

وفي ضـــوء هذا الفهم يمكن أن تفهم آيات التحدي، فهي تأكيد على الفرق بين الإنســـاني والرباني، بين صنع الخالق، وفعل المخلوق، صنع الله الذي أتقن كل شيء، إن قوله تعالى: (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله)، لا يختلف عن قوله تعالى: (هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه؟) وعن قوله: (إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له). فكلها تأكيد على بداعة الفعل الرباني، وعدم اســتطاعة الخلق مثله.

الخلاصــة:

جاءت طريقة القرآن لإثبات إعجاز القرآن عبر ربطه بآيات الله الكونية كالشــمس والقمر والنبات والإنســان، هذه الآيات التي تدل بقليل من التأمّل والتفكّر على إبداع منشــئها وعظيم صـنعه، وكذلك هو القرآن، فهو آية من آيات الله التي تدلّ بقليل من التدبّر والتفكّر على مـصدره الرباني.

وأما قياس القرآن على معجزات الســابقين فهو قياس غير دقيق، وذلك لأن القرآن يختلف عن معجزات السابقين ومن ثم يمكن القول إن وصف القرآن بأنه (معجزة) هو وصف غير دقيق في الدلالة على طبيعة الإعجاز القرآني، وأن اللفظ الأدق هو اللفظ القرآني (آية).

وهذا الكلام لا يعني أن إعجاز القرآن إنما يظهر من خلال آيات الله الكونية فقط، وإنما وجوه إعجاز القرآن الكريم متعدّدة ومتنوعة، فكل شــيء دلّ في القرآن على علم الله الواســع، وقدرته سبحانه التي لا يستطيعها البشر، فهو وجه من وجوه إعجاز القرآن الكريم. سواء أكان أمراً تاريخيًا، أو تشريعيًا، أو علميًا، أو بلاغيًا... إلخ.

هذا والله تعالى أعلم، وصلى الله على نبينا محمد وسلم،،

المصـادر والمراجع

١- الإتقان في علوم القرآن، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٣٩٤ هـ/ ١٩٧٤م.

٢- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ، محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الشنقيطي ، دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع بيروت - لبنان ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥م.

٣- الإعجاز البلاغي، د.محمد أبو موسى، مكتبة وهبة ، القاهرة، ١٤١٨ - ١٩٩٨ .

٤- إعجاز القرآن، محمد بن الطيب الباقلاني ، تقديم وشرح: محمد شريف سكر ، دار إحياء العلوم ، بيروت ، ط٢ ، ١٤١١ هـ .

٥- إعجاز القرآن عند ابن تيمية، د.محمد العواجي. دار المنهاج، الرياض، ١٤٢٧ .

٦- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصطفى صادق الرافعي ، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ١٤٢٨ هـ.

٧- بيان إعجاز القرآن ، حمد بن محمد الخطابي (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تحقيق: محمد خلف الله أحمد، د.محمد زغلول سلاّم، دار المعارف، القاهرة، ط٤، د.ت)

٨- تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبة، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.

٩- دراسات في علوم القرآن الكريم ، أ. د. فهد بن عبد الرحمن بن سليمان الرومي، حقوق الطبع محفوظة للمؤلف، الطبعة الثانية عشرة، ١٤٢٤ هـ

١٠- التعريفات، علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني ، ضبطه وصححه جماعة من العلماء بإشراف الناشر، دار الكتب العلمية بيروت -لبنان الطبعة: الأولى ١٤٠٣ هـ -١٩٨٣م.

١١- ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، للرماني والخطابي وعبدالقاهر، تحقيق: محمد خلف الله أحمد، ود.محمد زغلول سلام، دار المعارف، مصر، ١٩٧٦م.

١٢- جهود أهل السنة والجماعة في الإعجاز اللغوي والبياني للقرآن، ابن القيم نموذجًا. إعداد: العيد حذّيق، أطروحة ماجستير مقدمة إلى جامعة الجزائر، كلية العلوم الإسلامية (مخطوط).

١٣- خلاصة علم الكلام، دار المؤرخ العربي، بيروت، ط٢ ١٤١٤ هـ ، د.عبدالهادي الفضلي.

١٤- دلائل الإعجاز، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني ، تحقيق: محمود محمد شاكر ، دار المدني بجدة الطبعة: الثالثة ١٤١٣ هـ - ١٩٩٢م

١٥- الرسالة الشافية، عبدالقاهر الجرجاني، (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن)

١٦- رسائل الجاحظ (الكلامية)، الجاحظ، تقديم وشرح: د. علي أبو ملحم، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ٢٠٠٢ م.

١٧- رسائل الجاحظ، جمع وتحقيق: عبد السلام هارون، مطبعة الخانجي، القاهرة، ١٣٨٤ هـ.

١٨- الظاهرة القرآنية، مالك بن نبي، دار الفكر، دمشق، ١٤٢٠ هـ.

١٩- القاموس المحيط، مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادى، مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة بإشراف: محمد نعيم العرقسُوسي، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان، الطبعة الثامنة، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م.

٢٠- لسان العرب المؤلف: محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور ، دار صادر - بيروت الطبعة الثالثة - ١٤١٤ ه

٢١- مباحث في إعجاز القرآن، د مصطفى مسلم الناشر: دار القلم - دمشق الطبعة: الثالثة، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م.

٢٢- مداخل إعجاز القرآن، محمود شاكر، دار المدني، جدة، ٢٠٠٢م.

٢٣- المعجزة الكبرى، محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، القاهرة، د.ت.

٢٤- مفتاح العلوم، أبو يعقوب السكاكي، ضبطه وكتب هوامشه وعلق عليه: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م

٢٥- مقدمة ابن خلدون مطبعة الشعب القاهرة، د.ت.

٢٦- موقف ابن تيمية من الأشاعرة تأليف: د.عبد الرحمن بن صالح بن صالح المحمود، مكتبة الرشد - الرياض الطبعة: الأولى، ١٤١٥ هـ / ١٩٩٥ م.

٢٧- النبوات، ابن تيمية، تحقيق: د.عبدالعزيز بن صالح الطويان، مطبوعات الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، ١٤٢٠- ٢٠٠٠.

٢٨- النكت في إعجاز القرآن، علي بن عيسى الرماني، (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن).

فهرس موضوعات البحث

المحتويات